تطور المدخل البيئي في علم الاجتماع وعلاقته بعلم الاجتماع الحضري

لم تجد الايكولوجيا البشرية سواء كمجال للبحث أو كمدخل للدراسة مجالاً للتطور مثلما وجدته في علم الاجتماع

فلقد تبين لنا أن لها أصولا امتدت بعيداً في تاريخ الفكر الاجتماعي وعلم الاجتماع ،

بل ويلاحظ انه ليس هناك مجالاً للبحث حظي بهذا القدر من الإهتمام من جانب الاتجاهات والمدارس الاجتماعية والسوسيولوجية المختلفة ، مثلما حظيت موضوعات الايكولوجيا

حتى وان لم تكن قد عرفت بهذا الاسم إلا في وقت متأخر نسبياً ، وربما كان ذلك راجعاً إلى تشعب اهتماماتها وتعقدها في نفس الوقت :

فهي – أي الايكولوجيا- باهتمامها بفكرة النسق الايكولوجي وتحويل الطاقة وتوزيعاتها ، تجد لدى ممثلي المدرسة الميكانيكية في علم الاجتماع جانباً كبيراً من مصادرها بالإضافة إلى ما اخذته من البيولوجية وعلم النبات والحيوان

و الايكولوجيا باهتمامها وتركيزها على دراسة البيئة وعواملها وتأثيراتها ، تتفق في كثير من تصوراتها مع المدرسة الجغرافية في علم الاجتماع كما يمثلها عدد من المفكرين ممن اهتموا بتوضيح العلاقة بين الظروف الجغرافية {والسلوك الإنساني ، والتنظيم الاجتماعي والعمليات الاجتماعية والمقدرات التاريخية للإنسان

كذلك نجدها في محاولتها تطبيق المبادئ والتعميمات البيولوجية في دراسة المجتمع الإنساني نجد لها ما يدعمها في اتجاهات التفكير الاجتماعي التي اهتمت هي الأخرى بنفس الموضوع

كالنظرية التطورية عند سبنسر ، والاتجاهات الدر وانية في علم الاجتماع ، وما تفرع عنها من مدارس فكرية مختلفة

ثم أن الايكولوجيا عندما تتخذ من العنصر البشري طرفا أساسيا في (معادلة التوافق البيئي) تستند وبالضرورة على العديد من الأفكار التي رددها ادم سميث ، ومالتوس وغيرهما ممن عنوا بتحليل المتغيرات الديموغرافية كالحجم والكثافة والتوزيع وعلاقتها بأشكال التنظيم الاجتماعي والتمايز والعزل والتدرج الطبقي .. الخ

وأخيراً نجدها في اهتمامها بمتغيرات (البناء) و(التنظيم) و(الوظيفة) و (التفاعل) و(المنافسة) و(العمليات الاجتماعية) تجد مجالاً أكثر رحابة في العديد من جوانب النظرية السوسيولوجية

فتجد في نظريات التوازن قدر ما تجده في نظريات الصراع ، وتجد في نظريات الوحدات الكبرى قدر ما تجده في نظريات الوحدات الصغرى

ومن ثم ليس من قبيل المبالغة أن نقول أن قدراً من الاهتمام بالمسائل الايكولوجية كان قاسماً مشتركاً أعظم بين مختلف الاتجاهات الفكرية والنظرية في علم الاجتماع ، وهذا ما يجعل من الصعوبة بمكان ان نحدد على وجه الدقة متى بدأ علماء الاجتماع يفكرون في استخدام وتطبيق المفاهيم الايكولوجية.

والواقع أن هناك عدة بدايات لاستخدام المدخل الايكولوجي في علم الاجتماع إلا انه من المتفق عليه في تراث علم الاجتماع أن البداية الأكثر وضوحاً كانت على يد روبرت بارك R.Park وارنست بيرجس E.Burgess ورودريك ماكينزي R.Mckenzie المؤسسون الأوائل للمدرسة الايكولوجية في جامعة شيكاغو ، فإليهم يرجع الفضل في تقديم (المصطلح) في دائرة البحث السوسيولوجي.

ومنذ عام ١٩٢٥ حدث تراكم التراث الايكولوجي بسرعة ملحوظة فقد شهدت السنوات العشر التالية عدداً من الاتجاهات الهامة في النظرية والبحث الايكولوجي كان من أهمها :

١-إعادة النظر في تحديد مجال البحث الايكولوجي في علم الاجتماع

ففي ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، عقد اجتماع الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع برئاسة ل.برنارد L.L.Bernard قدمت فيه مجموعة من المقالات وأوراق العمل ، التي وضعت لتحديد مجالات البحث وموضوعاته ، ومناهجه في الجوانب المختلفة للنظرية السوسيولوجية العامة

وكان من بين الأوراق المقدمة ، تلك التي تقدم بها ماكينزي يحدد فيها مجال البحث الايكولوجي وموضوعه ،

وقد ركز ماكينزي في هذا المقال على المجتمع المحلي كوحدة أساسية للبحث والدراسة ، محاولاً تمييز الايكولوجيا عن كل من الديموجرافيا والجغرافيا البشرية كمداخل مختلفة لدراسة المجتمع المحلي

ولقد كان خلاصة هذا التمييز أن الديموجرافيا تعالج المجتمع المحلي كحشد أو تجمع سكاني بسيط

بينما تتناول الجغرافية البشرية علاقة الجماعة السكانية بالموطن الفيزيقي من حولها

في حين تهتم الايكولوجيا بدراسة المجتمع المحلي كوحدة (تكافلية Symbiotic)

وعلى هذا النحو أوضح ماكينزي أن الدارس السوسيولوجي للايكولوجيا يهتم بدراسة المجتمع المحلي كوحدة متفاعلة

لقد تصور المجتمع المحلي كما لو كان ينشأ من خلال المنافسة ، وكما لو كان أفراده يرتبطون مع بعضهم البعض من خلال عمليات الاعتماد المتبادل ، التي تستند بدورها على التخصص وتقسيم العمل

وكما لو كان حجمه وتوزيعه المكاني والمهني يستند على العملية الأساسية وهي المنافسة

وفي هذا الصدد أشار ماكينزي أيضاً إلى أن البحث الايكولوجي – حتى وقت انعقاد المؤتمر- كان محدوداً ، لم تبذل في مجاله أية محاولات لتقديم معالجة منظمة

وان سبب ذلك يرجع في نظره إلى اقتصار علماء الاجتماع على الاهتمام بدراسة التوزيع المكاني داخل المدن ، ومحاولة تعيين الحواجز أو الحدود الطبيعية للمجتمعات المحلية.

وفي سنة ١٩٣٤ حاول جيمس كوين J.Quinn أن يعيد تحديد مجال البحث الايكولوجي وذلك عن طريق تحليل الاختلافات بين التفاعل الاجتماعي وما اسماه بالتفاعل الايكولوجي

فلقد أوضح كوين أن كثيراً من علماء الاجتماع يميلون إلى وصف أي دراسة بأنها ايكولوجية إذا احتوت على توزيع مكاني للظواهر داخل منطقة البحث

كما نفى من جانبه أن يكون مجرد الوصف أن يشتمل على التحليل الايكولوجي على تفسير لظواهر المجتمع المحلي في ضوء عمليات التفاعل الايكولوجي ،

ويتميز التفاعل الايكولوجي عنده بأنه يتم من خلال الاعتماد على ما يعتمد عليه الآخرون من فائض محدود لموارد البيئة

كما يستند على حقيقة أن كل كائن حي (بما في ذلك الكائن البشري) يؤثر في غيره عن طريق زيادة أو نقصان فائض الموارد الذي يعتمد عليه الآخرون

التفاعل الايكولوجي في نظر كوين عملية غير شخصية لا تشتمل كالتفاعل الاجتماعي ، على تبادل المعنى

ومن ثم فهو عملية تفاعلية ليست ذات طابع اجتماعي بحت ، بل هي شبه اجتماعية Sub-Social

وتعمل الايكولوجيا – بهذا المعنى – داخل إطار مرجعي متميز لها ، بحيث تتميز عن الدراسات الاجتماعية بنموذج التفاعل الذي يمثل محور اهتمامها

ولكنها رغم ذلك تبقى على صلة وثيقة بكل ما هو اجتماعي

كما تلعب دوراً هاماً في تحليل الظاهرة الاجتماعية

هذا الإطار المرجعي المتميز (التفاعل شبه الاجتماعي غير الشخصي Impersonal and sub-social interaction) هو الذي يعطي للايكولوجيا – في نظر كوين- مكانتها المستقلة كمدخل متميز من مداخل النظرية السوسيولوجية.

وفي سنة ١٩٣٨ ظهر تيار نقدي معاد للايكولوجيا فقد تشكك البعض في صدق وثبات القضايا والفروض والمبادئ الايكولوجية

وبخاصة تلك التي استعيرت من البيولوجيا

وكان من اعنف ما وجه للمدخل الايكولوجي من انتقادات ما قدمته ميلا اليهان M.Alihan حول الإطار النظري للايكولوجيا وبخاصة كما تمثله أفكار بارك،

فقد أوضحت الباحثة انه إطار غير كاف وغير متكامل، ينطوي على تناقضات صارخة ،

كذلك اتخذ جيتز W.E.Gettys نفس الموقف ، فوصف المدخل الايكولوجي بأنه مدخل وضعي حتمي آلي عضوي

ونادى بضرورة العمل على إعادة توجيه المدخل على نحو أكثر كفاءة وملاءمة للدراسة السوسيولوجية

ولقد لفتت هذه الانتقادات- وأخرى غيرها – الأنظار إلى نقاط الضعف الكامنة في المدخل الايكولوجي

ولكنها أكدت مع ذلك أن الايكولوجيا ستستمر في التطور، كمجال خصب ومثمر للدراسة والبحث داخل الإطار السوسيولوجي الأوسع.

وكرد فعل لهذا التيار النقدي بذلت عدة محاولات لإعادة تحديد مجال البحث الايكولوجي

كشفت في مجموعها عن أن البحث الايكولوجي يشتمل – إلى جانب اهتمامه بالتوزيع المكاني للظواهر – على مجالات أكثر أهمية تتمثل في (التنظيم المعيشي) الذي ينبثق عن التفاعل الايكولوجي

والذي يتضمن الاعتماد المتبادل المستند إلى تقسيم العمل

ولعل من أهم الدراسات التي ألقت مزيداً من الضوء على الاهتمام بالتنظيم المعيشي الايكولوجي تلك التي أجراها علماء الاجتماع الريفي ، وبخاصة ما عنى منها بتوضيح علاقة المدن بجوانب الريف او بمشكلات التوطن الصناعي في الريف .. الخ

وفي هذا المجال تجلت إسهامات ماكينزي حيث قدم في كتابه (قراءات في الايكولوجيا البشرية) أساساً نظرياً لدراسة التنظيم المعيشي

(التو)عالم الحيوان المشهور ، حاول تطبيق فكرة التنظيم المعيشي على المجتمع الإنساني ، وانتهت به محاولته إلى أن مفاهيم مثل (سلاسل الغذاء) و(الوضع الايكولوجي) و(نسيج الحياة) .. الخ

وان كانت لا تطبق على المجال البشري دون تعديل جوهري ، إلا أنها تقدم مدخلاً قيماً لدراسة علاقات العيش بين بني الإنسان

وفي خاتمة الكتاب أوضح ماكينزي أن مجال البحث الايكولوجي لا يمكن حصره في دراسة التوزيع المكاني للظواهر ، بل يتسع ليشمل معالجة التنظيم المعيشي الذي يفسر في ضوء الأشكال الايكولوجية وغير الشخصية للتفاعل .

٢/إعادة تحديد المفاهيم الايكولوجية وتعريفها

شهدت فترة ما بعد سنة ١٩٢٥ ظهور عدد من المقالات والدراسات التي عنيت بتطوير عدد من المفاهيم الايكولوجية الجديدة ، وإعادة النظر في تحديد ما استخدم من قبل من مفاهيم ، على نحو أكثر دقة ،

وقد لا يتسع المجال لان نقدم تحليلاً وعرضاً مفصلاً لهذا الاتجاه ، ويكفي أن نشير بشيء من الإيجاز لأهم ما استحدث من مفاهيم وما عدل منها

ففي سنة ١٩٢٧ قدم بيرجيس مفهوم (التدرج والانحدار– أمام الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ، واستخدمه بعد ذلك كل من كليفورد شاو C.Shaw وسميث وغيرهما في تحليل المجتمعات المحلية والأقاليم الحضرية

كما ظهر مفهوم (المؤشر أو المقياس الايكولوجي Ecological Index)

ليشير إلى المعطيات الايكولوجية الموضوعية التي يسهل قياسها ، كوسائل أكثر فعالية للكشف عن طبيعة الحياة الاجتماعية التي تتميز بأنها اقل موضوعية وأصعب قياساً

وفي هذا الصدد ، قدم عدد كبير من علماء الاجتماع مجموعة من المؤشرات والمقاييس ذات دلالة ايكولوجية هامة كالحراك، وقيم الأرض ، ومعدلات وفيات الأطفال ، والانحراف والطلاق..الخ

ولعل من أهم الدراسات التي استخدمت مفهوم المؤشر أو المقياس الايكولوجي دراسة هولنج شيد A.B.Holingshead التي استخدمت (تغيرات ملكية الأرض) كمؤشر لتعاقب أنماط المجتمعات المحلية الريفية

ودرسه ليند A.W.Lind التي استخدمت (تعاقب استخدام الأرض) كمؤشر ومقياس للتغير الاجتماعي في هاواي

والى جانب ذلك تعرضت بعض المفاهيم القديمة للنقد اللاذع ومحاولة التعديل ، ومن أهمها مفهوم (الدوائر المتمركزة Concentric Zones) الذي قدمه بيرجس من قبل وهاجمه في ذلك كل من دافي Davie واليهان وكوين

كذلك بذل ماكيرجي Mukerjee جهداً واضحاً لتحديد مدلول عدد من المفاهيم مثل (التوازن) و(التنظيم) و(التوزيع) و (التعاقب)

وجاء ماكينزي بعد ذلك فاستكمل هذه المحاولة في كتابه (قراءات في مجال الايكولوجيا البشرية) ليسجل اكبر إسهام له في تحديد المفاهيم الايكولوجية ، على نحو دقيق مثل(الحشد) و(التركيز) و(الحراك) و(التوزيع الانتقائي) و(التنظيم الايكولوجي) و(السيطرة) و(التعاقب) .. الخ

ويعد هذا الكتاب بحق أول محاولة قيمة لتنظيم المفاهيم الايكولوجية وتخليصها مما كان بها يرتبط من اضطراب وغموض

٣/تطوير المناهج والأساليب الملائمة للبحث الايكولوجي:

سارت محاولة تطوير المناهج الأكثر ملاءمة للدراسة الايكولوجية، جنبا إلى جنب مع محاولة تطوير المفاهيم الايكولوجية وإعادة صياغتها وتحديد مدلولاتها

ولقد كان أول ما عني به في هذا الصدد ، تطوير الوسائل المنهجية التي تمكن من تحديد حدود الأقاليم والوحدات الايكولوجية

ففي سنة ١٩٢٩ نشر بارك ورقة عمل كان قد تقدم بها لاجتماع الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ، استخدم فيها (دورة الصحف) كوسيلة هامة لتعيين حدود الأقاليم المتروبوليتية

وفي كتابة (المجتمع المتروبوليتي) اقتراح ماكينزي عدداً من الإجراءات التي تستخدم لهذا الغرض

كذلك فقد جذب انشغال الايكولوجي بالتوزيع المكاني اهتمامه بتصميم الخرائط المختلفة ، التي تتوزع عليها معطياته الاجتماعية والايكولوجية

وكان من أهم أنواع الخرائط التي عرفت في هذه الفترة والتي لا يزال يعني بها الباحث الايكولوجي حتى الآن خرائط الأساس Bass Map وخرائط المناطق التعدادية Census Tract Map والخرائط الايزومترية Isometric Map ، التي استخدمت لتحديد مراكز انتشار بعض الظواهر الاجتماعية كالطلاق والانحراف الجريمة .

كذلك ظهرت عدة مقالات تناولت موضوع الحراك وجذبت الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بإيجاد الوسائل والإجراءات المنهجية الملائمة لقياس الحراك

وللتمييز بين أشكاله الايكولوجية والاجتماعية

وبنفس القدر الذي عني فيه الايكولوجيون الأوائل بالتوزيع المكاني للأفراد بذلت عدة محاولات لدراسة ايكولوجية المؤسسات والمنظمات بهدف وضع تفسيرات ايكولوجية لتوزيع الظواهر النظامية

ولكنها مع ذلك كانت محاولات محدودة إلى درجة كبيرة ، بحيث عجزت في الحقيقة عن التوصل إلى الخط الفاصل بين التحليل الايكولوجي والسوسيولوجي للظاهرة.

وأخيراً سجلت هذه الفترة تزايداً واضحاً في الإقبال على استخدام المناهج الإحصائية ، في دراسة التوزيع المكاني للظواهر

وقد دفع إلى هذا الإقبال ما أسلمت إليه الارتباطات بين المعطيات التي جمعت عن المناطق التعدادية والإحصائية من نتائج مثيرة ، كان من الضروري إخضاعها للمعالجة والتمحيص الإحصائي.

التوسع في مجال البحث الايكولوجي

كان من ابرز الاتجاهات التي شهدتها فترة ما بعد سنة ١٩٢٥ ذلك الاهتمام بدراسة الوحدات الكبرى ، إلى جانب الاهتمام التقليدي والمبكر بدراسة الوحدات الصغرى

لقد أوضحنا من قبل كيف ركز علماء الاجتماع في الفترة الأولى من تطوير المدخل الايكولوجي على دراسة المناطق الصغيرة نسبيا:

: درس (جالبين) المجتمعات المحلية الريفية ، وانصبت أول دراسة (لماكينزي) على (المجاورة) وتزايد الاهتمام بدراسة المناطق الداخلية للمدن الكبرى ،

إلا أنه وبالتدريج بدأ اهتمام علماء الاجتماع يتمدد ليستوعب دراسة المناطق الأكثر اتساعاً ، بل نتج عن هذا الاهتمام بلورة اتجاه متميز في الدراسة الايكولوجية عرف (بالمدخل الإقليمي Regional Approach)

وقد بلغ الأمر ببعض الباحثين إلى حد محاولة دراسة التنظيم الايكولوجي على المستوى العالمي ،

كذلك يعد التراكم المتزايد للدراسات الامبيريقية والميدانية احد الاتجاهات البارزة في تطور المدخل الايكولوجي في علم الاجتماع

والشاهد على ذلك تلك الأعداد المتزايدة من الدراسات التي أجريت حول المناطق الحضرية ، ومناطق الأطراف والضواحي والمدن الصغرى والأقاليم المتروبوليتية

ودراسات التوزيع المكاني لمختلف الظواهر الاجتماعية والإنسانية ، ودراسات الحراك بأشكاله المختلفة والدراسات التي عنيت بالنمو الحضري وأنماط التوافق ومشكلات الهجرة والتخطيط الحضري ومشكلات المدن الكبرى .. الخ .

ويؤرخ ثيدورسون G.Theodorson للتطور التاريخي للمدخل الايكولوجي في علم الاجتماع ، محدداً إياه في أربعة مراحل أساسية هي :-

أ) المرحلة الكلاسيكية: وهي تمثل وجهة النظر التي ترى في المنافسة عملية أساسية في تشكيل العلاقات الإنسانية ، كما تمثل الاعتقاد بان المجتمع الإنساني – تمييزاً عن المجتمع النباتي والحيواني – ينتظم على مستويين احدهما حيوي والأخر ثقافي ، وباختصار تعبر الأفكار والقضايا التي طرحها بارك في أعماله المبكرة عن طابع هذه المرحلة خير تعبير .

وقد تزعم هذه المحاولة كل من كوين ، وهاولي غير انه من الملاحظ أن كوين لم يقدم إلا القدر البسيط كبديل للمدخل الكلاسيكي الذي كان من المتصور انه سيرفضه ، فقد عاد ليكرر نفس الأفكار من جديد إلى حد كبير

أما هاولي فقد حاول إعادة تعريف الايكولوجيا كاشتقاق نظري من الايكولوجيا العامة ، ولم يحاول مثل كوين أن يقيم أي تمييز بين ما هو اجتماعي وما هو شبه اجتماعي (ايكولوجي)

ولذلك نراه يقرر (أن الموضوع الأساسي للبحث الايكولوجي هو المجتمع المحلي، وان الايكولوجيا هي دراسة لمورفولوجية الحياة الجمعية في جوانبها الاستاتيكية والديناميكية ،

وهكذا كان التصحيح الذي جاء به هاولي ممثلاً في التأكيد على (المورفولوجية) وعلى (طبيعة بناء المجتمع المحلي) وعلى (السكان) وتوضيح أن تكيف الإنسان وتوافقه لمواطنه كعملية لتطور المجتمع من أهم الملامح المميزة للدراسة الايكولوجية

ج) المدخل السوسيوثقافي وهو بمثابة رد فعل واضح لتأكيد المدخل الايكولوجي الكلاسيكي على الجانب الحيوي (عند بارك) أو الجانب المادي (عند بيرجس) أو الجانب الاقتصادي (عند ماكينزي) من الحياة الاجتماعية

فقد أوضح والترفايري W.firey – وهو احد الدعاة الأوائل للمدخل السوسيوثقافي- أن هناك بعض العمليات الايكولوجية التي لا يمكن معالجتها من خلال المفاهيم الحيوية أو الاقتصادية التي ركز عليها المدخل الكلاسيكي

وان ثمة نسق أخر من المفاهيم التي ترتبط بالجانب القيمي في عملية التوافق المكاني يجب أن يطور ليكمل ثغرات المفاهيم الكلاسيكية ومن ثم نراه يؤكد أن المكان يتخذ معناه بالنسبة للإنسان من خلال التعريف الثقافي له ، وانه في كل الأحوال تتوسط القيم الثقافية تلك العلاقة التي تقوم بين الإنسان والمجتمع الإنساني من جانب وبين البيئة الفيزيقية أو (المكان) من جانب أخر

) مدخل تحليل المناطق الاجتماعية ويمثل في نظر ثيودورسون- المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل تطور المدخل الايكولوجي في علم الاجتماع

ويعتبر هذا المدخل – كما جاء في دراسات كل من شيفكي E.Shevky ووندل بل W.Bell – بمثابة عوده للتأكيد على العلاقات المكانية مع تفسيرها في ضوء عوامل متعددة ، لا من خلال عامل واحد فقط ، كما هو الحال في المدخل الكلاسيكي

ولقد كان هذا المدخل نفسه بمثابة التمهيد المباشر لإحداث الاتجاهات التي ظهرت في مجال الدراسات الايكولوجية والتي يعرف في الوقت الراهن بمدخل (التحليل العاملي) أو (الايكولوجيا العاملية)

الايكولوجيا وعلم الاجتماع الحضري

يعتبر الاهتمام المتزايد – والذي لم يسبق له مثيل- بالدراسات الايكولوجية الحضرية علامة طريق بارزة في تاريخ علم الاجتماع الأمريكي بوجه عام ، وعلم الاجتماع بجامعة شيكاغو بوجه خاص

فلقد كانت المحصلة العلمية والأكاديمية لهذا الاهتمام من الوفرة بالدرجة التي جعلت قسم الاجتماع بهذه الجامعة يكتسب شهرة عالمية واسعة ، بتركيزه على دراسات التوزيع المكاني للمدينة (شيكاغو)

والحقيقة لقد تأثر الاهتمام السوسيولوجي بالمدينة بعدد من العوامل والمتغيرات: فقد كان النمو السريع للمدن في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مدعاة للاهتمام المتزايد بدراسة الخصائص المميزة لهذه المراكز النامية التي امتدت سيطرتها وتأكدت في أجزاء مختلفة من العالم

ومن ثم جذبت ظاهرة النمو الحضري أنظار الباحثين والدارسين في تخصصات كالتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع ،

كما قدمت في هذا الصدد أعمالا عدة نذكر منها الشروح الكثيرة التي نشرها شارلز بوس وغيره من الكتاب في انجلترا حول الأبعاد الجديدة للفقر والبؤس لدى سكان المناطق الحضرية المتخلفة إلى جانب ما قدم في أمريكا من مسوح اجتماعية كان من أشهرها ما قدمه لنكولن ستفينس Linoin Steffens الذي أثار كتابه Shame of the Cities اهتمام الكثير من علماء الاجتماع ودفع بارك بصفة خاصة لإعادة النظر في الموضوع بدقة وعمق اكبر .

وتتحدد نقطة البدء في تلك العلاقة التاريخية الوثيقة بين المدخل الايكولوجي والدراسات الحضرية فيما أولاه تشارلز ريشموند هندرسون CH- Richmond Henderson – وهو احد أعضاء المؤسسين لقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو- من اهتمام علمي بدراسة المدينة من منظور سوسيولوجي خاص

، ومع أن هندرسون كان اقرب إلى وجهة النظر التي عرفت في ذلك الوقت (بالاتجاه الإنساني أو الهيومانيزم) إلا انه كان يحرص في السنين الأولى من نشأة قسم الاجتماع بشيكاغو-على أن يبعث بتلاميذه وبصفة منتظمة لإجراء ملاحظاتهم حول المناطق المختلفة من المدينة

وبعد وفاة هندرسون ١٩١٦ تولى احد تلاميذه ، وهو ارنست بيرجس مهمة تدريس محاضراته ، ولذلك كان من الطبيعي أن يوطد بيرجس صلات عمل وثيقة بكثير من المؤسسات والأجهزة المعنية بأمور المجتمع المحلي

ومع أن معظم هذه المؤسسات كانت معنية بمسائل الخدمة الاجتماعية، إلا أن تعاونها مع بيرجس كان له قيمة بالغة في الجهود التي بذلت لجمع البيانات اللازمة لإجراء الدراسات الحضرية فيما بعد .

ولقد حدث أن سبق (بارك) (بيرجس) في تأكيده على الإمكانية الكبيرة والقيمة لاستخدام مدينة شيكاغو كمجال للدراسات الميدانية أو على حد تعبيره كمعمل لهذه الدراسات

ولقد حدث أيضا أن وافق البيون سمول Albion Small – أول رئيس لقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو- على هذا الاقتراح وسرعان ما بدأ نشاط البحث الايكولوجي في التطور بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة.

وبطبيعة الحال اتسمت معظم الجهود والدراسات في هذه المرحلة المبكرة بالطابع الوصفي ، فقد بدأ العمل في وضع الخرائط وتصميمها من خلال المقرر الدراسي الذي كان بيرجس يتولى تدريسه في مجال الباثولوجيا الاجتماعية ، وكان من بين برنامج هذا المقرر أن يقوم الطلاب بالتدريب على جمع أي نوع من البيانات الحضرية ، وتوزيعها على خرائط خاصة ، ومن خلال هذه الجهود ظهرت مؤشرات النمط والبناء الحضري واضحة

حيث أدرك بيرجس وتلاميذه أن هناك ارتباطاً واضحاً ومتبادلاً بين مختلف أنماط الظواهر الحضرية

وقد تلى ذلك أن ادخل بارك وبيرجس مقرراً جديداً للدراسات الميدانية ، وذلك بهدف تكثيف هذه الجهود البحثية الاستطلاعية ، وكان من نتيجة ذلك إن امتلأت مكتبة القسم بالعديد من الخرائط التي توضح مختلف جوانب الحياة الاجتماعية لمدينة شيكاغو

وكان من أهم هذه الخرائط تلك التي تحدد مواقع التوزيعات المكانية للأحداث المنحرفين والسلوك الانحرافي ، والتوزيعات المكانية لمختلف النشاطات الحضرية ومواقع الصناعات والأعمال والتجارة والمناطق السكنية بمختف مستوياتها .. الخ

والحق أتاحت هذه الجهود قدراً متراكماً من البيانات المرتبطة بالمناطق التعدادية ، حتى أصبح من الممكن وضع وتحديد معدلات دقيقة لمختلف الظواهر الاجتماعية في المناطق الفرعية بالمدينة

وبالطبع ، أفادت خرائط المعدلات فائدة كبرى حيث أوضحت تأثير الكثافة السكانية المتمايزة على التوزيع المكاني للظواهر بين مختلف أجزاء المدينة.

وفي أوائل العشرينات تكونت اللجنة المحلية لبحوث المجتمع المحلي لتأخذ على عاتقها الإشراف على الدراسات التي تقوم بها الأقسام المختلفة ، والتي تعنى بتحليل الأنماط والأشكال المكانية للحياة الاجتماعية والثقافية للمدينة ، كأنماط المعيشة والعادات ومستويات الطموح .. الخ

وقد خصصت ميزانيات ضخمة من قبل الجامعة وبعض المؤسسات المعنية مثل مؤسسة روكفلر لتمويل هذه الدراسات والبحوث الحضرية.

ومما هو جدير بالذكر أن طلاب قسم الاجتماع وبخاصة طلاب الدراسات العليا ، قاموا بدور ملحوظ في الدراسات والبحوث التي أجريت في هذه الفترة

لقد كانت جميع المقررات الدراسية بالقسم تقتضي أن يقدم الطلاب أعمالاً ميدانية في مختلف الموضوعات ذات الطابع السوسيولوجي

وقد ساعد ذلك على جمع القدر المتراكم من البيانات والمعلومات عن المدينة (شيكاغو) وعلى تصميم العديد من الخرائط (كخرائط الأساس والموقع والمعدلات) ،

كما اجري العديد من المقابلات والملاحظات الموجهة ، والتي سجلت بطريقة منظمة مختلف الظواهر الاجتماعية المرتبطة بحياة المدينة ،

وبالطبع اتسمت كل المحاولات السابقة بالطابع الوصفي ، إلا أن ما قدمته من نتائج أصبحت بعد مراجعتها تشكل مادة علمية أكثر ملائمة لتطوير نظرية ما حول السلوك الحضري ونمط البناء المكاني الحضري

تلك النظرية التي قدمها بارك وبيرجس في محاضراتهما ومؤلفاتهما فيما بعد ،

والحقيقة أن جزءاً كبيراً من التراث المبكر للايكولوجيا الحضرية قد امتلئ بمثل هذه الدراسات الميدانية ، ولو أن توجيهات بارك وبيرجس- النظرية والمنهجية- كانت هي التي أضفت عليها طابع الوحدة والاتساق والتكامل ،

ولعل من أكثر عناصر هذا التراث أهمية مقالة بارك عن (المدينة) ١٩١٦ ، وكتابية اللذين اشتركا فيهما مع بيرجس عن (المدينة) ١٩٢٥ ، (المجتمع الحضري) ١٩٢٦ ، وكتاب أول تلميذ لبارك وأكثرهم نبوغاً ، وهو رودريك ماكينزي ، عن (المجاورات الحضرية) ١٩١٣ ، والذي يعد من أكثر الأعمال إسهاماً في تطوير الايكولوجيا والمدخل الايكولوجي

وباختصار ، كانت مدينة شيكاغو ، في نظر بارك وبيرجس – وكما تؤكد كتاباتهما ومؤلفاتهما- مثالاً أو نموذجا لشكل المدينة الصناعية الحديثة ، رغم ما كان لها من ظروف وخصائص طوبوغرافية ومكانية فريدة ومتميزة

غير أن هذه النظرة لم تصادف أي قبول من جانب بعض تلاميذهما ممن انتقدوا رأي الأستاذين وجمعوا من الشواهد والمعلومات عن بعض المدن الأخرى ما لم يؤكد بالضرورة أنها تكشف عن نفس النمط المكاني المميز لمدينة شيكاغو- كالمدن الصناعية القديمة في أوروبا والشرق ، والمدن التي تقوم على أسس اقتصادية ومعيشية مغايرة كمدن الترفيه ومدن الجامعات وغيرها من المدن التي كشفت عن نموذج ايكولوجي مغاير تماماً لمدينة شيكاغو ،

ومن ثم دفع هذا الموقف إلى إجراء العديد من الدراسات لوصف ملامح البناء الاجتماعي والايكولوجي للمدن المختلفة في أوروبا وأمريكا

وفي هذا الصدد كان (النمو الحضري للمدينة) من أهم الموضوعات التي استأثرت بنصيب وافر من اهتمام الباحثين ، كما تمخضت هذه الدراسات عن مجموعة من النتائج التي ألقت المزيد من الضوء على عوامل النمو الحضري وعملياته ونتائجه،

فقد كشفت في مجموعها عن أن الهجرة كانت من أهم العوامل التي أدت إلى نمو الكثير من المدن الأمريكية الكبرى ، وان أفواج المهاجرين الجدد إلى المدينة لا يتوزعون بطريقة متساوية على كل مناطق المدينة ووحداتها ، بل تتركز في مناطق الأحياء المتخلفة في وسط المدينة ، والتي تتميز بارتفاع كثافتها السكانية لتزايد هذه الكثافة ارتفاعهاً

كذلك كشفت هذه الدراسات عن انه في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، انصهرت الجموع الغفيرة من المهاجرين الأوربيين في المناطق المركزية من المدن الكبرى ،

وان الغالبية العظمى من جماعات المهاجرين قد وفدت من مناطق ريفية وانتمت إلى مستويات الدخل والتعليم الدنيا في مواطنها الأصلية ، وأنها تتدرج – بعد هجرتها- ضمن القوى العاملة غير الماهرة، ذات المستوى المنخفض للأجور ومن ثم ، تضطر إلى الإقامة في المناطق المتخلفة والمزدحمة في المدينة ،

كما تبين أن نسبة كبيرة من المهاجرين الجدد إلى الإحياء المتخلفة ، قد أقامت بالمساكن الخالية التي هجرتها أصحابها القدامى بعد أن حققوا قدراً من الثراء فانتقلوا إلى مناطق سكنية أكثر رقياً .

كذلك عنيت بعض الدراسات المبكرة بتحليل عمليات التنقل السكني والكشف عن أنماطه وعوامله وأوضحت كيف سارت هذه العملية في مدينة شيكاغو في اتجاه منتظم نحو الانتقال من مناطق الأحياء المتخلفة إلى مناطق الضواحي وكيف أن

هذه النقلة لا تتحقق دفعة واحدة على مستوى الأفراد والجماعات السلالية بالمدينة، بل تتميز بمرورها في سلسلة متعددة الحلقات من الانتقالات

وكيف انه بعد فترة من الزمن تحدث عمليات التمثيل الثقافي وبعض عمليات الدمج بين الجماعات السلالية المختلفة من خلال عمليات الزواج المتبادل

وبالإضافة إلى ذلك كان من بين النتائج التي كشفت عنها هذه الدراسات والبحوث الحضرية التي أجريت على مدينة شيكاغو أن المشكلات الاجتماعية المصاحبة والمميزة للفقر والمرض ومشكلات السلوك الانحرافي التي وجدت بين سكان المناطق المختلفة في كل مدن العالم كانت نتاجاً مباشراً للتفكك الاجتماعي أكثر منها نتاجاً للنوعي السلالية للسكان

وجدير بالذكر أن هذه النتائج جاءت مخالفة لما سبق أن أكدته حركة (تحسين النسل) في أواخر القرن التاسع عشر ، أن الخصائص المميزة للمناطق المتخلفة في المدينة وهي المحصلة النهائية والطبيعية لخصائص الأجيال التي تعاقبت عليها ،

تلك الدعوة التي لاقت قبولاً واسعاً بين علماء البيولوجيا والاجتماع على حد سواء ولكن

على العكس من هذه الدعوى كشفت الدراسات الحضرية بجامعة شيكاغو عن انه – فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة- تشارك كل الجماعات الاثنية التي تقيم في المناطق المتخلفة في التفكك الاجتماعي الذي تتميز به ، وانه ما أن تستطيع أي جماعة منها أن تحقق بعض الثراء فإنها سرعان ما تنتقل بعيداً عن هذه المناطق لتقيم بأخرى أكثر استقراراً ومن ثم تميل أعراض التفكك الاجتماعي إلى الاختفاء .

ولعل من أهم ما أمكن التوصل إليه من نتائج في مجالي التوزيع المكاني للسكان والأنشطة الحضرية ، أن المواقع السكنية بأنماطها المختلفة كانت أكثر تأثراً بالعملية الكلية للمنافسة على المكان الحضري الأكثر امتيازاً

حيث لوحظ أن اختيار المناطق الممتازة يتم دائما من جانب الجماعات والأنشطة التي تستطيع مواجهة ارتفاع قيمة الأرض أو القيمة الايجارية لمساكنها،

وفي خضم هذه العملية تتطور منطقة الأعمال المركزية في أكثر المناطق جاذبية للمشروعات المختلفة كمحلات تجارة التجزئة ومؤسسات الأعمال ومكاتب الإدارات والمهن الفنية العليا ومكاتب الاتحادات والروابط المهنية وأعماله الترفيه والفنادق الكبرى ،.. الخ ،

ويكمن تفسير ميل هذه النشاطات إلى التركز في هذه المنطقة في أنها وحدها التي تستطيع أن تحقق أقصى فائدة ممكنة للمواقع الممتازة ، وان تواجه النفقات الباهظة للتوطن بها

ويلي منطقة الأعمال المركزية وبالقرب منها تتوطن الصناعات التحويلية الخفيفة والمخازن والمستودعات وغيرها من الأنشطة التي تستفيد من الموقع المركزي والتي تتطلب مساحات كبيرة من الأرض عن سابقاتها

ثم يلي بعد ذلك مناطق الصناعات الثقيلة التي تحقق فائدة اكبر من قربها من مراكز النقل والمواصلات وتتطلب بدورها مساحات أكثر اتساعاً من الأرض

والى جانب ذلك تبين أن الأغراض السكنية لاستخدام الأرض تعجز في اغلب الأحيان عن منافسة الأغراض الأخرى فيما تقدمه من تكاليف باهظة لقيمة الأرض أو للقيمة الايجارية للمباني ومن ثم نجدها تشغل المناطق التي لا يكون عليها إقبالاً شديداً من جانب الأنشطة التجارية أو الصناعية لاستخدام الأرض

كما تتفاوت المكانة الاجتماعية والاقتصادية للمناطق السكنية باختلاف موقعها على الخريطة الايكولوجية للمدينة كقربها أو بعدها من منطقة الأعمال المركزية ، أو من منطقة الصناعات ، أو من مراكز المواصلات والمرافق العامة .. الخ ،

كما تخضع توزيعاتها المكانية لمبدأ المنافسة على استخدام الأرض

وباختصار كشف البحث السيوسولوجي للمدينة عن تفاصيل وجزئيات أكثر توضح في مجموعها أن عملية المنافسة الايكولوجية على استخدام الأرض والمكان تعد من أهم العوامل التي تحدد مواقع الأفراد والجماعات والأنشطة في عملية انتقاء منتظمة ومستمرة ،

لقد أوضحت هذه النتائج كيف وان بناء المدينة يكون بمثابة المحصلة النهائية لنضال السكان وجهودهم من اجل العيش والعمل معاً ، تحكمهم وتوجههم عدداً من القوى والعمليات ذات الطابع الايكولوجي

كالمنافسة على الأرض وتحولات استخدامها ، وتتابع عمليات الهجرة إلى جانب عمليات العزل الاجتماعي والسلالي والثقافي .. الخ – التي تنشط في كل مدينة لتطور بداخلها مناطق وظيفية متميزة ، ذات نمط سكاني ووظيفي متميز اقرب ما تكون إلى المناطق الطبيعية لأنها لم تنتج عن تخطيط إنساني متعمد ، بل كانت نتاجا لعدد من العمليات الايكولوجية الطبيعية.

مجموعة من الاسئلة في المادة

ماهي المشكلة المحورية للايكولوجيا البشرية

يؤثر التحضر على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ناقش

يتميز النسق الايكولوجي بمجموعة من الخصائص الاساسية ناقش

نمت الايكولوجيا البشرية في نفس المدرسة التي نمت فيها الايكولوجيا ناقش

تعرض موقف الايكولوجيين من الايكولوجيا البشرية للنقد علل

تنقسم مقومات النسق الايكولوجي الى قسمين اساسين مترابطين ناقش

علم الاجتماع يتصدى لدراسة البيئة وينطلق من اسهامه في مجال تنمية البيئة وخدمة المجتمع ناقش

Done